المحاضرة الثامنة: المدارس التاريخية (الجزء الثاني)

مدرسة الحوليات

II مدرسة الحوليات (Annales School)

بعد دراستنا للمدرسة الوضعية يضعنا الباحثون أمام محطة أخرى من محطات التطور في المنهج التاريخي، والأمر يعود إلى مدرسة أحدثت تحولاً كبيرا في البحث التاريخي وفرضت نفسها بقوة على الساحة في مجال تخصص التاريخ، يتعلق الأمر بمدرسة الحوليات الفرنسية. فتحت هذه المدرسة "آفاقا جديدة أمام الباحثين بسعيها لتجديد مناهج الكتابة التاريخية وأدواتها ومصادرها وإشكالاتها ومواضيعها، من خلال انفتاحها على العلوم الاجتماعية الأخرى."

يمكن أن نؤرخ لولادة تيار مدرسة الحوليات بالعدد الأول من دورية المجلة الصادر سنة 15 يناير 1929م، والتي سرعان ما تحولت من مجرد مجلة إلى مدرسة تاريخية رائدة في الكتابة التاريخية. كان هدف مؤسسيها هو كسر جمود المدرسة الوضعية وفك قيودها، "وتطوير منهج البحث التاريخي؛ فعملت على تجاوز الطرائق التقليدية والقواعد التي رسّختها المدرسة الوضعية في معالجة الوثائق وتحليلها. فانفتحت على حقول الاقتصاد وعلوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والديمغرافيا"، فركَّزت على طرح الإشكالات وتطوير التحليل والاستنتاج، وحدّت من التوجه نحو التاريخ الحدثي المجرد Histoire événementielle . الذي هيمن على التاريخ السياسي والعلاقات الدولية لتتعمق أكثر في التاريخ التفسيري Histoire explicative الذي يعالج التاريخ من منطق جغرافي وتحليل اقتصادي ونظرة اجتماعية، وأسهمت في ذلك الدراسات المؤسسة للتاريخ المسألة أو تاريخ الإشكالات، فحققت خطوات متقدمة سهّلتها التحولات المنهجية التي صاحبت نمو العلوم الإنسانية.

ومثلت أيضا حصيلة التوجهات الفكرية للمدارس التاريخية الأوربية الملتزمة والرومانسية والبيئية والمدارس ذات المنحى النضالي (الماركسية والليبرالية)، وكانت ثمرة للتجربة المخبرية والممارسة النظرية والتطبيق المنهجي لمؤرخين فرنسيين أعطوا البحث التاريخي طابعاً إنسانيًا من حيث المضمون والمنهج، وأعادوا إلى واجهة البحث والدراسة في مجال التاريخ قضايا الإنسان بأبعادها المختلفة.

أولا: النشأة والتاريخ

_ التأسيس: تأسست **مدرسة الحوليات** في فرنسا في أوائل القرن العشرين، تحديدًا عام 1929، على يد

مارك بلوخ ولوسيان فيبر، اللذين أسسا مجلة *"الحوليات* (Annales)*"* التي أصبحت المنبر الأساسي لعرض أفكار المدرسة.

_ الاسم: اختير اسم "الحوليات" (أي "السنوات") للمجلة لأنه كان يشير إلى دراسة التاريخ من منظور الزمن الطويل، بعيدًا عن السرد السطحي للأحداث التاريخية.

_ التوجه الفكري: انطلقت المدرسة من رغبة في تجاوز الأساليب التقليدية التي كانت سائدة في التاريخ السياسي والعسكري، والتي كانت تركز على الأحداث الكبرى والشخصيات البارزة، إلى دراسة أوسع وأعمق تشمل جميع جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ثانيا: المبادئ الأساسية لمدرسة الحوليات

1_ التاريخ الطويل المدى(La Longue Durée)

_ من أبرز المبادئ التي تبنتها المدرسة هو **مفهوم التاريخ الطويل المدى**، الذي طوره **فرناند بروديل**، أحد أبرز المفكرين في المدرسة. يشير هذا المفهوم إلى دراسة التغيرات التاريخية التي تحدث على فترات زمنية طويلة جدًا (عدة قرون أو حتى آلاف السنين)، ويشمل عوامل مثل الجغرافيا والاقتصاد والعادات الثقافية.

_ أكد بروديل أن بعض العوامل، مثل التضاريس الطبيعية والمناخ، لها تأثير طويل الأمد على سير التاريخ، ويجب فهم الأحداث التاريخية في سياق هذه العوامل الثابتة والمتغيرة على مر الزمن.

2_ التركيز على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي

_ تختلف مدرسة الحوليات عن المدارس السابقة في تاريخها بأنها اهتمت بشكل كبير بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية للحياة البشرية. فبدلاً من التركيز على الحروب والملوك والأحداث السياسية الكبرى، ركزت المدرسة على دراسة **الطبقات الاجتماعية، الاقتصاد، الأنثروبولوجيا**، و**الثقافة الشعبية**.

_ كان الهدف هو فهم تطور المجتمعات من خلال حياة الناس العاديين، وليس فقط النخب السياسية والعسكرية. وقد أسهم هذا التوجه في تطوير **التاريخ الاجتماعي** و**التاريخ الاقتصادي**، حيث أُعيد تحليل الحركات الاجتماعية، التغيرات الاقتصادية، وتطورات الحياة اليومية للمجتمعات عبر الزمن.

3_ التعددية المنهجية (Méthode Pluridisciplinaire)

_ من المبادئ الهامة لمدرسة الحوليات هو **التعددية المنهجية**، حيث دعت المدرسة إلى دمج **عدة تخصصات** في دراسة التاريخ، مثل:

* **علم الاجتماع** :لفهم الهياكل الاجتماعية والعلاقات بين الطبقات.

* **الاقتصاد** :لتحليل كيفية تأثير الأنماط الاقتصادية على التاريخ.
* **الجغرافيا** :لفهم دور المكان والمناخ في تشكيل الأحداث التاريخية.
* **الأنثروبولوجيا** :لدراسة التقاليد والعادات الثقافية للشعوب.
* **الديموغرافيا** :لفهم تأثير التغيرات السكانية على المجتمعات.

_ أدت هذه المنهجية إلى خروج التاريخ من العزلة التي كانت تفرضها المدارس التقليدية، ليصبح علمًا متعدد التخصصات يدمج الأفكار والأساليب من مختلف المجالات العلمية.

ثالثا: المفكرون الرئيسيون في مدرسة الحوليات

1_ مارك بلوخ:(Marc Bloch)

_ أحد مؤسسي المدرسة وأكثر المفكرين تأثيرًا فيها، كان بلوخ مهتمًا بفهم العلاقات الاجتماعية في التاريخ، ورفض التركيز على الأحداث السياسية البسيطة.

_ من أشهر أعماله كتاب " دفاعا عن التاريخ أو مهنة المؤرخ" و "الهزيمة الغريبة" و "المجتمع الاقطاعي" الذي كان يناقش فيه تطور العلاقات الاجتماعية والسياسية بين الفلاحين والنبلاء في العصور الوسطى.

2_ لوسيان فيبر:(Lucien Febvre)

_ كان فيبر مهتمًا بشكل خاص بالجغرافيا وعلاقتها بالتاريخ. وقد حاول أن يدمج الجغرافيا مع التاريخ لفهم كيف أثرت البيئة على تطور الحضارات. كما كان فيبر مهتمًا بتحليل القيم والمعتقدات الدينية.

_ من أعماله المهمة "معارك من أجل التاريخ" و "في قلب تدين القرن السادس عشر"

3_ فرناند بروديل:(Fernand Braudel)

_ يُعد بروديل من أبرز المفكرين في المدرسة وقدم نظرية التاريخ الطويل المدى، حيث كتب عمله الأشهر " البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد الملك فيليب الثاني".

_ في هذا العمل انتقد النظرة التقليدية التي تركز على الأحداث القصيرة الأمد، وأكد على أهمية فهم الجغرافيا والاقتصاد والمناخ كعوامل مؤثرة في سير التاريخ على المدى البعيد.

_ بروديل يرى أن تاريخ البحر الأبيض المتوسط لا يمكن فهمه فقط من خلال الحروب أو السياسة، بل يجب النظر إلى تأثير بيئته الطبيعية والاجتماعية.

خاتمة

شكلت **مدرسة الحوليات** تحولًا جوهريًا في دراسة التاريخ، إذ نقلته من التركيز على السرد السياسي والحدثي إلى تحليل البُنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في إطار زمني طويل الأمد. بفضل روادها، مثل **مارك بلوخ، ولوسيان فيبر، وفرناند بروديل،** أصبح التاريخ أكثر انفتاحًا على العلوم الاجتماعية، مما وسّع آفاق البحث التاريخي ومنهجيته.

ورغم التحولات التي طرأت على الفكر التاريخي في العقود الأخيرة، لا تزال أفكار مدرسة الحوليات مؤثرة، خاصة في تبني التعددية المنهجية وتوظيف مقاربات جديدة في تحليل الماضي. وهكذا، تبقى هذه المدرسة نموذجًا رائدًا في تطوير علم التاريخ، حيث جمعت بين الدقة الأكاديمية والانفتاح على مختلف التخصصات لفهم أعمق للتاريخ البشري.